بين اليازجي والشدياق

أول معركة في النقد العربي

بقلم انور الجندي

يمكن ان تعد المعركة الادبية بين اليازجي والشدياق التي وقعت عام ١٨٧١ أول معركة ادبية في الادب العربي المعاصر ، فما نعلم ان هناك معركة سبقت هذه المعركة ، وكنا قد اصدرنا مجلدا كاملا عن المعارك الادبية ضمن موسوعة معالم الادب العربي المعاصر تناولنا فيها اكثر من ستين معركة وكان أقدمها معركة رسالة منصور فهمي عام١٩١٤ عن حالة المرأة في التقاليد الاسلامية وتطوراتها ..

أما قبل هذا التاريخ فقد أشرت اليه اجمالا حين ذكرت ان هناك معركتين أولاهما بين ابراهيم اليازجي وفارس الشدياق ، ومعركة كتاب تحرير المرأة لقاسم امين عام ١٨٩٨ ولما كانت الاخيرة معركة اجتماعية في الاعلب حيث تدور حول مفاهيم السفور والحجاب وتعليم المرأة ، فقد رأينا ان نستعرض معركة اليازجي والشدياق باعتبارها معركة ادبية دارت حول اللغة أصلا .

وكان أحمد فارس الشدياق قد رثى المرحوم ناصيف اليازجي في مجلة الجوائب (العدد ٥١٩ ـ عام ١٨٧١) بقصيدة من الشعر « صدرها بكلام طويل اشار به الى مودة قديمة بينهما أوجب عليه رثاءه ، متمنيا له طول البقاء » ثم اشار الى ان مرجع ذلك الوطن والجيرة وان الرسائل الحبية قد استمرت بينهما كما استمرت المطارحات الادبية ، ثم اشار الى انه كان قد وجه اليه قصيدة شعرية فلما طبعها في ديوانه رفع اهداءها ثم اشار الى انه كتب له في أحد خطاباته عبارة (الفحطل) وعاب عليه هذا الخطأ وقال ان وجه الانتقاد فيها ان الحاء فيها مقدمة على الطاء والعكس هو الصحيح وان يقال الفطحل بتقديم الطاء .

وهذه عبارة الشدياق في الجوانب ١٠ ماي (ايار) ١٨٧١ :

« قد كان بيني وبين الشيخ ناصيف اليازجي مودة قديمة لانا كنا جيرانا في ساحل بيروت فكان مقره في كفرشيما ومقري في حارة الحدث ولما كنت في مالطه جرت بيننا مراسلات ادبية فأرسل الي قصيدة من الجناس العاطل . وكان قد ارسل الي قصيدة « لا تبك ميتا ولا تفرح بمولود » ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي مع صفاء الحب بيننا ، ثم أرسل الي كتابا ذكر فيه انه بلغه ان احد سكان الاستانة يريد ان يطبع مقاماته ولا يكون ذلك على وفق رضاه فان في نيته زيادة شيء عليها وتغيير شيء منها فأجيبه بأني استقصيت عن هذه القضية فلم أقف لها على اثر فاذا علمت شيئا بعد ذلك أنهيته اليه ، وكان أول ما خطر ببالي من التغيير الذي نواه لفظة الفحطل المذكورة في المقامة الانطاكيه ثم قال في تفسيرها هو زمن قبل ان يخلق الناس ويمكن ان يكون المراد به زمن الطوفان لان الفحطل هو المطر الشديد ، وهو وهم فان حق اللفظة القديمة الطاء على الحاء قال في القاموس الفحطل (كهزبر) وهو لم يخلق فيه الناس بعد . ولا شك ان قول الشيخ ناصيف في المتن والشرح فحطل بتقديم الحاء على الطاء هو من غلط الوهم الذي يغتفر للشاعر ... »

وقد رد « ابراهيم اليازجي » على « فارس الشدياق » مدافعا عن والده في مجلة (الجنان ـ ١٥ حزيران ١٨٧١)

قال مشيرا الى قصيدة الشدياق وما صدره بها ثم قال : غير انا وجدنا في اثناء كلامه من الانتقاد عليه رحمه الله ما حملنا على الاستغراب والعجب ، وقد وددنا ان نحمل كلامه هذا على مقتضيات المودة ، وان كنا لا نجد لذلك وجها سديدا .

ولما كان ما أورده من الكلام لا يخلو من فطنة جاهل واهم أو من نقد عالم بصير ، رأيت من باب الوجوب ان اتصدى لاجابته ردا لاوهام الواقفين عليه الى كنه الصواب والحقيقة .

وقد ذكر « صاحب الجوائب » في صدر كلامه مقدمات اشار بها الى مودة بينه وبين ابي رحمه الله ، كان منشأها الوطن والجيرة ، ثم استمرت بالمراسلات الحبية والمطارحات الادبية ، والامر كذلك فان أبي بعث اليه بقصيدة عزاه بها عن اشياء له مطلعها :

لا تبك ميتا ولا تفرح بمولود فالميت للدود والمولود للدود

وقد اجابه عنها بما مطلعه :

ما في يوم وليل دهر تنكيد فما البقاء وان تحرص بمحمود

وقد اشار في اثناء كلامه غير ما ذكرت الى قصيدته ، يقول : ان ابي اجابه باحداهما عن قصيدة له وبعث اليه بالاخرى .

ثم استدرك يذكر موجدة قديمة وعتب لعدم تصريحه باسمه في عنوان القصيدة التي عزاه بها في حين طبعها في ديوانه وقال : ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي مع صفاء الحب بيننا ، اقول والعجب من هذا فان ما عنده من صفاء الحب قد اضمر له ما اضمر الى ما بعد وفاته . ولعل في ذلك سرا يدركه اولو الالباب ، ولا ادري ما ضره عدم التصريح باسمه وليس في القصيدة مدح له وانما هي حكم وامثال يعزيه بها ، ومن الغريب ان امرأ كهذا قد اثقل منكبي الامام واقلق وقاره حتى نشره في جريدة سيارة والقى به نفير العتاب في الاقطار وأعمل الافكار في البحث عن سبب ذلك .

ثم استطرد الى ذكر كتاب قال ان أبي بعثه اليه من الاستانة (عن طبع مقاماته) ثم قال : وكان أول ما خطر ببالي من التعبير الذي نواه لفظة « الفحطل » المذكورة في المقامة الانطاكيه الى آخره ...

والظاهر ان هذا هو الذي دعاه الى ذكر الكتاب فجعله تمهيدا لما نواه سامحه الله ، وأعجب كيف لم يدرج هذا في جوابه له حينئذ ، وقد كان المقام أليق به من كل الوجوه ، وشهد الله اني منذ اليوم لم أكن اتوقع مثل ذلك من الصديق القديم اذ لم يقع بيننا ما يبعث عليه كما يقرر في كلامه ، ولا كان عندي انه ممن يحاول النضال عن فطنة الانفراد ، وقد كان ما في نفسه ممكنا على وجه أليق وأجمل به .

اما وجه الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء فيها مقدمة على الطاء في الواقع والحق العكس وان يقال « الفطحل » بتقديم الطاء .

(ثم أورد احكاما نحوية كثيرة) .

والشيء بالشيء يذكر ، فما مر الكلام عليه من الخلل في الاحكام الفاصلة هو على حد قوله في كتابه سر الليال .. « ولكنهم عدلوا عن هذه الجادة الى جادة اخرى جاهدة » ومثله قوله بعد ذلك « فظهرت أسارير حسنها وتباشير فنها وحكمة وضعها وبهجة مطلعها ، فان الجادة لا توافق جاهدة ووضعها لا توافق مطلعها وانما تكون الجادة بازاء النادرة مثلا وجاهدة بازاء شاردة وهلم جرا .. » ومن ذلك قوله ... ومن ذلك قوله الخ ..

(حتى أورد خمسا او ست اعتراضات عليه) .

ثم قال : وهنا أمسك عنان القلم اكتفاء بما ذكر عما لم يذكر ، على انني ما علقت ما علقته من غير اختيار مني كما أشرت فيما سبق ولكن قد جرى القلم ولعلي في جانب الغدر .

كما انني في ما تداركت على سر الليال لم أتجاوز الصفحة الواحدة ...

ومضى يقول : ولا بد من ملاحظة ما ذكره صاحب الجوائب مرارا في اثناء انتقاده من الاعتذار عن أبي رحمه الله في ما احتسبه خطأ منه ، وكأني به وراء ذلك يقصد بسط العذر لنفسه ايضا في وجه ربما خيل له الواقع ان الذمم عنده تموت بموت اصحابها والعياذ بالله. وذلك مما تأباه اخلاقه ولا يرضى به من تحلى بشعائر الكرم والشهادة، فانه قد حفظ له ذلك العهد زمنا ينيف عن ستين سنة وبينهما مسافة من الارض . فمن اصعب ما يخال التسليم بأنه قد تنازل الى نكثة معه حين اصبح ولا مطالب به الا امانته وذمته ..

٢ ــ رد الجوائب على ابراهيم اليازجي

« لا يخفى ان سيدي الوالد (فارس الشدياق) وكان قد رثى المرحوم الشيخ ناصيف بقصيدة بليغة في عدد ٥١٩ من الجوائب وصدرها بمقدمة أشار فيها الى ما كان بينهما من المكاتبة والمودة التي اقتضت ان يرثيه ثم لم يمض علينا ايام الا وقد طالعنا جرنال الجنة صورة رسالة ارسلها الخواجا ابراهيم لتطبع فيه يقول فيها ان ما صدر من محرر الجوائب مردود من وجوه شتى (وكأنه عنى بردها في رأيه اما في الواقع فهي ثابتة)

وذكر انه علق عليها رداً قياما بما عليه من الحقوق نحو والده اقول فلما ان علم الخواجا المومأ اليه حقوقا لوالده توجب قيامه في رد ما لا يرد عنه فكذلك لوالدي علي حقوق تقتضي ان انتدب لذكر ملاحظة نيابة عنه في مدة غيابه وسيظهر الحق الحكم المنصف فأقول ان ما ذكره سيدي الوالد فيما يتعلق بالمكاتبة التي وقعت بينهما امر ثابت لا يمكن نكرانه لوجود الرسالات التي وردت من الشيخ ناصيف المذكور الى سيدي الوالد . ان الرد الذي طبعه في الجنان كلام لا يصدر ممن له تمكن في الادب بل كله حشو وتخيلات (يقصد ما ذكره عن سر الليال) وانما صار يتكلم بما لا يجدي حين اخذه الغضب، فعوضا عن ان يسير القلم بما اراد سار به القلم بالتضاد » .

٣ ــ ثم كتب فارس الشدياق في الجوائب (٣٠ اغسطس ــ آب ١٨٧١) يقول :

لا يخفى ان الخواجه ابراهيم اليازجي كان قد كتب في صحيفة « الجنان » مقالة خطأني بها فيما أوردته على لفظة « الفحطل » و « المرابض » ثم انتقل منها الى تخطئة بعض الفاظ وردت في مقدمة « سر الليال » وأطال لسانه بالتهكم والتنديد مكافأة لي على كوني رثيت أباه ، وحيث كان وصول مقالته الي وأنا أطوف في البلاد لتبديل الهواء، وكان اعتنائي بصحتي اذ ذاك أوجب علي من معارضة السفهاء ، فلم يهمني الرد عليه وتخطئته فيما خطأني به ، ولا سيما ان تخطئته كانت ظاهرة في عين كلامه ، لانه مبني على المغالطة والتمويه ، وهو صفة كثير من امثاله الذين زبوا من قبل ان يحصرموا فاذا قالوا شيئا فانما يقصدون به اعجاب جيرانهم ومعارفهم من الاغبياء المسفسفين لا ارضاء العلماء ، الا اني لما استقر بي المقام بالاستانة ، رأيت الجواب على سفسطة المذكور أولى من السكوت لكي يعلم الناس اني لم ازل مراعيا لحقوق العربية التي تقضي علي بأن أردع كل سفيه عنها ، فأقول ان قوله (ولا ادري ما ضره عدم التصريح باسمه وليس في القصيدة مدح له وانما هي حكم وأمثال يعزيه بها محض مواربة فان أباه صرح بمدحي) .

فهل ذلك الا من العمى او التعامي . أما قوله الظاهر ان هذا هو الذي دعاه الى ذكر الكتاب فجعله تمهيدا لما نواه ، فالجواب اني لم أنو طعنا في مقامات أبيه ، ولو كان في قصدي ذلك لم أقتصر على لفظة الفحطل وانما خصصتها بالذكر لغرابتها .

أما قوله انها من غلط الطبع فيكذبه ورود المطل بعدها فتأمل...

ثم عرض للاخطاء التي اوردها عن كتابه سر الليال فرد عليها ثم قال : « ولا عجب فان هذا المتيليع يقول مثل الكلام فانه غر لم يمارس اللغة وانما العجب من كاتب الجنان ان ينشره عنه مع كونه حشر نفسه في عداد المؤلفين في هذه اللغة الشريفة ، وما ذلك الا لان كلام اليازجي أصاب منه موضع جرب فحكه » .

(وعاد مرة اخرى الى الهجاء) :

واذا كان هذا المعترض يدعي ان اباه كان معصوما من الغلط فتلك بدعة شؤمى .

ثم قال : « فمن كان رأس ماله في العربية هذا المقدار فليسكت ، والا فليستعن بصاحب الجنان على تنقيح كلامه فاما تعقيد كلامه واضطراب عبارته واسهابه في غير موضع الاسهاب فنكله الى من له ذوق سليم وطبع مستقيم » ا.هـ.

٤ ــ رد ابراهيم اليازجي على أحمد أفندي فارس الشدياق :

علم (١) الاكثرون ما وقع بيني وبين الشدياق .. فكأنما أوغر ذلك صدره وكبر عليه أمر تخطئتي له فيما اعترض به ونبهني له بعض ما رأيته من الخطأ في كتابه « سر الليال » مما أوردته في ردي المشار اليه فأخذ في الوعيد والتنديد مرة اخرى حتى ورد منه الجواب في العدد ٥٣٨ من صحيفته المذكورة ، واذا به قد عدل الى المسافهة والمهاترة وخرج بما لا يليق ذكره . فعجبت أول ما عجبت من ارتكابه

(١) الجنان ــ ٢ تشرين ١٨٧١ ــ ج ٢١

قريبا

ثورة الفقراء

بقلم

رجاء النقاش

دراسة عميقة واعية للثورة الجزائرية العظيمة وانجازاتها الضخمة .

منشورات دار الاداب

هذه الخطة المنكرة لاننا كنا في أول الامر قد دخلنا من باب المناظرة الادبية ولم نكن في شيء من قصد المهاجاة والمشاتمة . ولا كان عندي انه اذا دعت الحال لمثل هذا نتنازل الى المواطأة عليه ويرضى به لنكسه .

ولقد كنت أحسب ان تمادي الايام قد حان له ان يهذب من اخلاقه ويمكن عنده اسباب الحلم والدماثة والصبر على المكروه اكثر مما رأى من نفسه هذه المرة ، فاذا دمه لم يزل على حرارته المعهودة أيام كانت تلك النار تغري بفحم الشباب فكأنما كان ثلج المشيب أدعى الى المبالغة في ايقادها ، فما زاد على ان اثار شواظها فاذا هو هي . وقد علمت انني لم أكن مبادئا له في هذه المناقشة ولا سبق بيني وبينه عهد في أمر من الامور وانما كان هو المتجني المعتدي ولا سيما انه لم يأبى المرحوم وخطأه عبثا ، فلم يكن يسعني والحالة هذه الا رده وفاء بحق من انا مندوب في كل شرع ان أدرأ عنه كل عابث بحقه ، وبالتالي اظهارا للحقيقة التي لا احسب اني اكون معذورا اذا سكت عن ابرازها مع معرفتي لها وعدم تمكني عن الاغضاء عنها كما لا يخفى .

وكنت أود لو استمرت هذه المناقشة مجردة الى البحث في المسائل الادبية والحقائق العلمية ، دون ما يسمع كل يوم من غلمان الازقة وسفهاء الناس واجلافهم السفلة . ولو كان في ذلك فضل لكان الفضل لمثل هؤلاء لان فيهم من له اليد الطولى في هذا الباب ، ولعمري هذا ما طالما أشرت اليه في ردي السابق وعرضت في غير موضع بحب اجتناب هذا الرجل حذر انبعاثه علي بملثه سامحه الله ، على انه لو شاء ان يقابلني بأخس منه لكان أقدر عليه وكان أجمل به . وما اخاله يجهل ان من يبذل نفسه في مجال كهذا انما يتعرض لان يشرب بالكأس التي سقاني بها فهل يسوغ عنده ذلك ...

ولئن ساغ عندة ما فعلت أبدا وأبى الله ان اجري الا على ما أدبت عليه من الرزانة والنزاهة . ولعمري ما كنت لاقتحم موقفا كهذا أكون فيه عرضة لملامة الحليم وهزء السفيه ، وبناء على ذلك كان الاولى أن أقتصر عن الاجابة ، لان المناظرة من شرطها التكافؤ بين الجانبين ولا تكافؤبيننا لرجحانه علي بهذا المعنى ، ولكن لئلا يتوهم بي ظنة القصور لم أجد بدا من ان اجيبه هذه المرة مقتصرا على ما نحن في شأنه او ما هو من شأننا وأخلصه ردا علميا كما يليق بالاديب المهذب او بالحري بالشيخ الكامل .

(وبعد ان كتب اليازجي ٣٠ صفحة نشرت في ثلاثة اعداد خلال شهري تشرين وكانون اول ١٨٧١) ختمها بقوله :

وهنا لا بد ان اقول ان هذه المناقشة كلها لم تكن مني عن رغبة ورضى ولا أنا ممن يتهافتون الى التخطئة والانتقاد لغرض ما ، وكان بودي استئصال هذا العرق من بيننا ، لو وافقني عليه ، والمحافظة على عهده مع ابي رحمه الله وكرامته فوق ذلك بالنظر الى سنه فضلا عن عدم التعرض له بما يكرهه ولكن قدر فكان والفضل للمتقدم .

ثم قال : « وشهد الله اني ما كنت لاكره الخوض في هذه المطارحات والمباحث الدقيقة فانها لا تخلو من فائدة لي لو انه حافظ على شأني وشأنه ولم يتجاوز الى امر الهجاء فاني شديد الكراهية له .

اما الان فقد بينت للواقف على هذه المناقشة مبلغ ما عنده من العلم فلا يلزمني بعدها مساجلته ومناظرته والتعرض لسهام قذفه ، لان آدابي ليست كآدابه ، وأطواري ليست كأطواره ، ولا رأي لي في مواطأته على ما ذهب اليه ومعاذ الله ، فذلك باب من قبلي محكم التوصيد .

ليست الوقيعة من شأني فان عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ندى » .

القاهرة — انور الجندي

صدر حديثا في

سلسلة القصص العالمية

الحلقة الاولى

قصص سارتر

في كتاب واحد يضم : الجدار ، الغرفة ، ايروسترات ـ صميمية ـ صداقة عجيبة

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٣٥٠ ق.ل

والحلقة الثانية

قصص كامو

في كتاب واحد يضم : الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ أليكم ـ الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة

عايدة مطرجي ادريس

الثمن ٤ ليرات لبنانية

منشورات دار الآداب